معلوماتيّة الحياة الروحيّة

الأب أنطوان ملكي

يحكي المؤرّخون عن ثلاث ثوراتٍ غيّرت وجه التاريخ: الثورة الزراعيّة التي جرَت قبل المسيح ببضعِ آلاف السنين، وعلى إثرها انتقل البشر من البداوة إلى العيش في تجمُّعاتٍ ثابتة؛ ثمّ الثورة الصناعيّة في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، وفيها انتقل الناس إلى الاتّكال على الطاقة، وصارت قوى الأرض تستمدّ منها قوّتها؛ إلى أن جاءت الثورة الثالثة، وهي ثورة المعلومات في القرن الماضي. هذه الثورة ترافقت مع تطوّرٍ سريعٍ في مختلف أنواع التكنولوجيا. وبنتيجتها صار عندنا علومٌ للمعلومات وأنظمتها، وإدارتها، واقتصادها، وفلسفتها، وحتّى لاهوتها.

والسرعة التي تتقدّم بها هذه الحقول لا تَسهُل مجاراتها، لا سيّما أنّ منتجاتها قد اندسّت في جوانب حياتنا كلّها. فمَن يتخيّل حياةً من دون هاتفٍ ذكيّ، وسيّارةٍ ذكيّة، وتلفزيونٍ ذكيّ، وغسّالة ثيابٍ ذكيّة؟ هذه اللائحة تطول فنَصِلُ إلى أبواب البيوت وأنظمة حمايتها ومراقبتها. وهنا يخطر لي التساؤل الذي طرحَته إحدى الكاتبات: أترى لو أنَّ الرسول بولس، كاتب نشيد المحبّة الذي يورده في الإصحاح 13 من الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين، جاء في عصرنا هذا، فهل كان أضاف إلى نشيده السؤال التالي: "إن كنتُ أتواصل مع ملايين الناس عبر الإنترنت، وأجيدُ استعمال الفايسبوك والسكايب والواتساب، وليس لي محبّةٌ فلستُ شيئاً"؟

أمام هذا الواقع المغمور بروح المعلوماتيّة، يصير الحديث عن معلوماتيّةِ الروح أمرًا مشروعًا. للولوج في هذا الموضوع وبلوغ المنفعة فيه، سوف أعرض أوّلاً قولة العلم فيه، ثمّ تعليم الآباء.

ماذا يقول العلم؟

المعلوماتيّة هي علم معالجة المُعطَيات والمعلومات، لبلوغ المعرفة ومنها الحقيقة، اعتمادًا على وسائل وطرائق علميّةٍ محدّدة، منها ما يختصّ بهذا العلم، ومنها ما هو مأخوذٌ من العلوم الأخرى.

يتدرّج العلم بين المعطيات (Data) والحكمة، مرورًا بالمعلومات والمعرفة. والمعطيات هي رموز. وهي المادّة الأوّليّة التي لا تحمل أيّ معنىً بذاتها، ولا علاقة لها بالمكان أو الزمان. وعندما نَجِدُ مجموعةً من المعطيات، نحاول ربطها بأشياء أخرى لإعطائها معنى.

أمّا المعلومات (Information) فهي مجموعةٌ من المعطيات، مرتّبةٌ ترتيبًا مفيدًا يجيب عن أسئلةٍ مثل "مَن؟"، "ماذا؟"، "أين؟"، "متى؟". والمعلومات تقدّم وصفًا أو تعريفًا أو منظورًا. لهذا فإنَّ مجموعة المعطيات، بحدّ ذاتها، لا تُكوِّنُ معلوماتٍ إلّا إذا حملَت علاقةً فيما بينها. لهذا، يتعلّق الأمر كثيرًا بمتلقّي المعلومات، وكيفيّة ربطه بين أجزاء هذه المجموعة من المعطيات. فالمعلومات إذًا هي فهم العلاقة التي بين المعطيات، لذا فهي ترتبط بالسياق الذي ترِدُ فيه.

الدرجة الثالثة التي يحكي عنها العلم هي المعرفة (Knowledge) التي يصفها بأنّها تطبيق المعطيات والمعلومات للإجابة عن سؤال "كيف؟". فهي تتضمّن الاستراتيجيّات والتطبيق العمليّ والطرائق. فالمعرفة هي مجموعة المعلومات عندما تكون مفيدة. أمّا تكديس المعرفة، أي حفظها، فليس كافيًا، كونه لا يؤدّي إلى معرفةٍ جديدةٍ إلّا عن طريق مهاراتٍ تحليليّةٍ وإدراكيّةٍ تشكّل درجةً فوق المعرفة تُسمّى "الفهم". إذًا، "الفهم" هو استطاعة الاستدلال على معرفةٍ جديدةٍ باستخدام التحليل والإدراك، وهو يقع بين المعرفة والحكمة.

أمّا الحكمة (Wisdom)، وهي الدرجة الرابعة، فهي "الفهم" المُقيَّم الذي يظهر عندما تُفهَم المبادئ الأساسيّة لعناصر المعرفة. تحاول الحكمة خلقَ سياقٍ أوسع من المعرفة، لذا فهي تتضمّن المبادئ والأخلاق والبصيرة والمثال. أهمّ جوابٍ تقدّمه الحكمة هو على السؤال "لماذا؟". والحكمة عمليّةٌ استقرائيّةٌ وغير حتميّة، لا تخضع لقانون الاحتمالات، ومن شروطها الوعي، لأنَّ المُتوقَّع منها هو فهم ما لم يكن مفهومًا من قبل، وطرح أسئلة حيث لا توجد أجوبة تبعًا للمعرفة البشريّة. لهذا السبب يرى العلم أنّ الحكمة هي عمليّة التفريق أو الحكم بين الحقّ والباطل، بين الخير والشرّ. ويستنتج العلماء، العاقلون منهم، أنّه لا يمكن للحاسوب أن يحوي الحكمة أبدًا لأنّها حالةٌ بشريّةٌ تحتاج إلى كائنٍ ذي روح، وتوجد في القلب كما في الذهن.

ثم يأتي العلم إلى تحديد الحقيقة فيرى أنّها، ببساطة، الظاهرة التي تثبت بالتجربة والدليل والملاحظة.

لا بدّ هنا من إيراد ما نستنتج ممّا سبق، وهو أنّ مجموعةً من المعطيات ليست معلومات، ومجموعةً من المعلومات ليست معرفة، ومجموعةً من المعارف ليست حكمة، ومجموعةً من الحِكم ليست حقيقة. إلّا أنّ الاستنتاج الذي يزيد من صعوبة مهمّتنا هو أنّ العلم يقدّم تدرُّجًا واضحًا من المُعطى إلى المعرفة، لكنّه يخرج عن هذا السياق كلّيًّا عندما يحكي عن الحقيقة. فهو يعتبر أنّ الحقيقة أعلى من المعرفة، لكنّه لا يبرهن الرابط بينهما. ويصير الأمر أكثر صعوبةً عندما يعجز العلم عن تحديد الحقيقة إلّا عن طريق الكلام عمّا هو عكسها، بقوله إنّ الحقيقيّ هو ما ليس كاذبًا أو زائفًا، فنصير بحاجةٍ إلى تحديد الكذب والزَّيف وغيره.

إذًا، في ختام الجزء الأوّل من هذا الحديث، المعلوماتيّة كعلمٍ تقوم بكلّ ما هو مطلوب منها، لكنّها لا تقدّم الجواب الشافي لأنّ ما بلغته قابلٌ للطعن والمراجعة والاستنساب والتفسير، وليس مقبولاً من الجميع.

لكن قبل الولوج إلى معلوماتيّة الحياة الروحيّة لا بدّ من لفت النظر إلى بعض الظواهر الناتجة من تطوّر علوم المعلومات، والتي تأتي في صُلب مقاربتنا لهذا البحث. فقد تخطّى عدد مستخدمي فايسبوك المليار، وغيره من برامج الشبكات الاجتماعيّة فاقَ مئات الملايين، مع ما يعني ذلك من انشغال الناس ساعاتٍ طويلة، ومع ظهور علومٍ جديدةٍ رديفةٍ لعلوم المعلومات، كالطبّ النفسيّ السيبرانيّ الذي يُعنى بمشكلات الإدمان على المعلومات، والريبة المعلوماتيّة، ومع تزايد العنف الإلكترونيّ والحديث عن الحروب السيبرانيّة، وأهمّ من ذلك مع انتشار المدوّنات وسهولة إنشاء الصفحات والمواقع. فماذا يقول العلم عن هذا الوضع؟ يتوقّف العلماء عند ضحالة المعلومات التي تتكاثر كمّيًّا من دون أن تؤدّي إلى أيّة معرفة، لا بل إنّ مفعولها المعرفيّ يكون عكسيًّا في أحيانٍ كثيرة، حيث تتغلّب المتعة على البحث المنتِج.

من جهةٍ أخرى، غابت المرجعيّات في نشر المعطيات والمعلومات، حيث صار كلّ إنسانٍ مصدرًا بحدّ ذاته، ففي المسيحيّة مثلاً، صار لكلّ مدوّنٍ الحريّة في قول ما يشاء، ونشر تفسيره للإنجيل أو التقليد أو تاريخ الكنيسة. أمّا سرعة انتشار المعلومات التي وُجِدَت لتكون نعمة، فتحوّلت إلى نقمة، إذ تطغى السرعة والسعي لتحقيق السبق على التحقُّق والتمحيص والتأكُّد. فوَصلنا إلى وضعٍ ازدادَ فيه علمُ الناس على حساب معرفتهم، وضلالُهم على حساب يقينهم. وكثُرَ المحلّلون الذين يدّعون الحكمة والتنبّؤ واستطلاع الغيب.

وتضاعَفَ عدد المؤمنين بالخرافات بدلًا من أن يتناقص. وتساوى الصحيح بالمبتَذَل، والأصيل بالمفبرَك، والحقيقيّ بالوهم، حتّى صارت البرمجيّات مصادر إيمانٍ والأعمالَ السينمائيّة مصادرَ نشوءٍ لأديان.

أذكر هنا، على سبيل المثال، كنيسة غوغل (The Church of Google) التي لها أتباعٌ في لبنان، وتحديدًا في مؤسّسات التعليم العالي، فغوغل دائمُ الوجود (7/24) وشاملُ المعرفة لأنّ لديه أجوبةً عن كلّ شيء. وهو بسيطٌ حتى إنَّ الصلاة إليه لا تتعدَّى البحث فيه، وقد تخطّى عدد استدعاءات كلمة "غوغل" إحصائيًّا (على الانترنت) الأسماء الدينيّة مثل الله والمسيح ومحمد. وقبل كلّ شيء، فإنَّ غوغل بذاته خيِّرٌ لا يؤذي.

وهنا فإنَّ السؤال الذي يهمّنا هو: إذا كانت علوم المعلومات والمعرفة قد وصلت إلى هذا المستوى، وإذا كان العقل البشريّ يقيم في بابلَ الفكريّةِ هذه، فهل الروح البشريّة بمنأى عن هذا التطوّر؟

بدءًا، لا بُدَّ من رفض التسويق لفكرة تعدُّد الحيوات عند الإنسان. فهذه الفكرة هي تسويقٌ وبروباغندا تُهيِّئ البشر لقبول الانفصام على أنّه حالة طبيعيّة. فلإنسان اليوم حياةٌ اجتماعيّةٌ وأخرى سياسيّةٌ ومهنيّةٌ وفكريّةٌ ونفسيّةٌ وعائليّةٌ ودينيّةٌ وروحيّةٌ وجنسيّة. قبول هذا التصنيف يُهيِّئ لقبول أن يكون الإنسان منعزلاً في المجتمع وناجحًا في مهنته؛ أو ناشطًا في المجتمع وكافرًا في دينه؛ أو يمارس الكراهية والحقد في السياسة، والحنان والرأفة في عائلته؛ أو شهوانيًّا في سلوكه وواعظًا عن العفّة والأخلاق، وغيرها من التناقضات التي تهيّئُنا من خلالها علوم الاجتماع والنفس الحديثة، منضمّة إليها علوم المعلومات مؤخّرًا، لأن نقبل بأن نُجزِّئ الإنسان إلى عقولٍ ونفوسٍ ينتج منها أشخاصٌ في الشخص الواحد. فصار الجنون حُجَّةً كافيةً للتبرئة من جريمة القتل، والتربية مبرّرًا للعنف والكفر. باختصار، يستطيع كلّ إنسانٍ أن ينقل ما يشاء من حياةٍ إلى أخرى، بحسب حاجته.

لم يتبنَّ كلّ آباء الكنيسة تقسيم الإنسان إلى جسدٍ ونفسٍ وروح (trichotomy)، لأنّهم تمسّكوا بأنّه شخصٌ واحد. وحتّى الذين قبلوا هذه الثلاثيّة لم يتعاطوها مفصولةً ولا مفكّكة. لهذا، لا نجد في الأدب الآبائيّ كلامًا على حياةٍ روحيّة، بل على حياةٍ في المسيح أو خارج المسيح، حياةٍ في الروح أو من دون الروح. وعلى هذا الأساس، سوف نحاول أن نقرأ الوضع البشريّ المعلوماتيّ القائم اليوم على ضوء الآباء.

معلوماتيّة الحياة في المسيح

يربط القدّيس إسحق السريانيّ المعرفة بالإيمان. فوِفقًا لتعليمه، ثمّة نوعان من المعرفة: المعرفة التي تسبق الإيمان، وتلك التي تولَدُ من الإيمان. الأولى هي المعرفة الطبيعيّة والتي تشمل التمييز بين الخير والشرّ. أمّا الثانية فهي المعرفة الروحيّة، وهي القدرة على فهمِ الأسرار وإدراكِ ما هو مخبّأ ومعاينةِ غير المنظور.

يعلّم أيضًا عن وجود نوعَين من الإيمان: الأوّل يأتي من السماع ويؤَكَّد ويُثبَت بالثاني، الذي هو الإيمان بالمعاينة، أي الإيمان القائم على ما تمّت رؤيته. لاكتساب المعرفة الروحيّة، على المرء أن يتحرّر أوّلاً من المعرفة الطبيعيّة، وهذا هو عمل الإيمان الذي يُبيدُ كلّ قوانين المعرفة الطبيعيّة. فالميزة الأساسيّة للمعرفة الطبيعيّة هي مقاربتها بالامتحان والاختبار، وهذا بحدّ ذاته علامةٌ على الشكّ بالحقيقة. بينما في المقابل، يتبع الإيمان طريقة تفكيرٍ نقيّةً وبسيطةً وبعيدةً كلّ البعد عن الخداع والامتحان المنهجيّ.

ويؤكّد القدّيس إسحق أنّ المعرفة الطبيعيّة تقف في مواجهة بساطة القلب وبساطة الفكر. فهي لا تعمل إلّا ضمن حدود الطبيعة، في حين أنَّ للإيمان طريقه الخاصّ إلى أبعد من الطبيعة. ويحذّر القدّيس من أنّه كلّما ازداد تكرُّس الإنسان لطرائق المعرفة الطبيعيّة، ازداد تملُّك الخوف له، وضعفت قدرته على التحرّر منه. بينما الإيمان يحرّر ويجعل الإنسان ابنًا لله.

لا يرفض القدّيس إسحق المعرفة الطبيعيّة بل يرى أنّها المستوى الذي منه يرتفع الإنسان إلى قمم الإيمان. عندما يبلغ هذه القمم لا يعود بحاجةٍ إلى هذه المعرفة، إذ كما هو مكتوب: "لأنّنا نعلم بعض العلم ونتنبّأ بعض التنبّؤ. ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يبطل ما هو بعض" (1كورنثوس 13:9-10). فالإيمان يكشف لنا حقيقة الكمال كما ولو أنّها أمام أعيننا. بالإيمان نكتشف ما هو فوق إدراكنا، بالإيمان وليس بالبحث وقوّة المعرفة.

في تعليم القديس إسحق، يقدّم الإيمان طريقة تفكيرٍ جديدةً لتحقيق المعرفة، وهي التواضع. يُظهِر أنّ موسى وداود وإشعياء وبطرس وبولس بلغوا المعرفة الكاملة بالتواضع. ويحدّد المعرفة بأنّها إدراك الحياة الأبديّة، أي فهم الأشياء كلّها في الله. ويعلّم أنَّ في الإنسان جوعًا غريزيًّا إلى الحقيقة، يساعد في اكتساب الإدراك لله وفي معرفة الذات التي توصِلُ إلى معرفة الله التي لا تُعطى للإنسان إلا بالمسيح وحده، عندما يحوّل الإنسان أعضاء معرفته بممارسة الفضائل. فالمعرفة المقدّسة تأتي من الحياة المقدّسة، بينما الغرور يُظلِمُ تلك المعرفة.

يقبل القديس يوستينوس بوبوفيتش، استنادًا إلى القدّيس إسحق السريانيّ، أنّ هناك ثلاث صيَغٍ روحيّةٍ تصعد فيها المعرفة وتنزل، وبها تتحرّك وتتغيّر، وهي الجسد والنفس والروح. في مستواها الأدنى، تتبع المعرفة رغبات الجسد، وفي عملها تكون نقيض الإيمان، مستندًا إلى قول الرسول إنّ العلم ينفخ في (١ كورنثوس ٨:١). ويضع القدّيس تحت هذه المعرفة الكثير من علوم الحضارة الأوروبيّة وفلسفاتها، وصولاً إلى نظريّة النسبيّة. أمّا المستوى الثاني من المعرفة، فهو في الجسد والنفس كِليهما، ويتمثّل بممارسة الفضائل أي كلّ عملٍ صالحٍ وكلّ نزعةٍ صالحة، وهي التي تبدأ بالروح القدس وتُنجَزُ به. والدرجة الثالثة من المعرفة هي الكمال: عندما ترتفع المعرفة فوق الأرض والاهتمام بالأشياء الأرضيّة، لتتفحّص داخلها والأفكار المخبّأة هناك.

باختصار، عند نهاية الجزء الثاني من هذا الحديث، يمكن تلخيص موضوع المعرفة الروحيّة في ما يرِدُ عند النبي إشعياء: "لأنّه كما علَت السماوات عن الأرض هكذا علَت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم" (إشعياء ٥٥:٩). فكما يرى الأب جورج عطيّة، في أمالي مادّة العقائد: صحيحٌ أنَّ هناك كلامًا كثيرًا على الله، ومن بينه كلام الكتاب المقدّس ذاته. ولكنّ معرفة كلّ ما كُتِبَ عن الله وحتى حفظه غيبًا، والتأمّل الفكريّ في هذه المعرفة والكتابة عنها لا يكفي لأن يجعل الإنسان عارفًا حقًّا بالله... بل يجب أن تقترن معرفة كلام الله بالإيمان والإيمان بلقاءٍ شخصيّ حيّ.

وعليه ماذا تكون معلوماتيّة الحياة في المسيح؟ إنّها السعي إلى معرفة الله معرفةً مباشرة، أي إلى شركةٍ شخصيّةٍ معه. العالم اليوم، وبخاصّةٍ عالم المعلومات القائم أوّلاً على شبكات الاتّصال، هو مثل بيلاطس الذي سأل ربَّ المجد الواقف أمامه: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟». إلّا أنّ السيّد كان قد أجابه مسبَقًا بأنّ الحقّ أو الحقيقة ليس كلامًا بل شخصٌ: "أنا هو الطريق والحقّ والحياة. ليس أحدٌ يأتي إلى الآب إلّا بي" (يوحنّا ١٤:٦).

يعلّم القديس ذياذوخوس: "ليس هناك أفقر من الفكر الذي يتكلّم على الله وهو يقف بعيدًا عنه". لذا فإنَّ معلوماتيّة الحياة في المسيح يجب أن توصِلَ إلى الشركة مع المسيح، وهنا الفرق بينها وبين معلوماتيّة العلوم. فقد تتشابه طرقهما في البداية، لكنّ المعرفة في الحياة في المسيح هي معرفةٌ وجوديّةٌ ينقاد الفكر طائعًا لها، وهي تأتي من المعاينة التي دعا فيلبُّس نثنائيل إليها: "تعالَ وانظر". ومتى أتى الإنسان وعاين يصل

إلى المعرفة التي طلبها يسوع لتلاميذه في صلاته على جبل الزيتون، وهي الحقيقة التي تجسّدت في التاريخ في يسوع نفسه.

غاية الحياة في المسيح هي بلوغ الحقيقة، لكنّ التدرُّج إليها، بحسب تعاليم الآباء، لا يُشبه التدرُّج في العلوم. فالتدرُّج في الحياة في المسيح هو من خوف الله إلى الإيمان إلى المحبّة، أي من التطهُّر إلى الاستنارة فالتمجيد حيث تُعايَن الحقيقة التي تحوي كلّ المعرفة وكلّ العلم وكلّ اليقين. كثرة المعطيات لا تصنع الإيمان. ووفرة المعلومات لا تصنع معرفة الله. وفَيضُ المعارف الدينيّة لا يصنع حقيقة. من هنا، تأتي خطورةٌ في تشكيل معلوماتيّة الحياة في المسيح على شاكلة مناهج علوم العالم ومعلوماتيّته.

ختامًا، أرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في طرح الصورة بشكلها الشامل، وإظهار الرابط بين الفكر الذي تبثُّه الحضارة الإلكترونيّة والحياة في المسيح. فالسلوكان كلاهما له خلفيّته، وتاليًا نتائجه وتأثيراته في الإنسان. هذا الموضوع ليس ترفًا فكريًّا، ولا هو استنباطٌ لإشكاليّاتٍ بحثيّةٍ غير موجودة. فأمامنا ظواهر ذات مؤشّراتٍ خطِرة، منها أولئك الذين يبدأ نهارهم بتفقُّد الرسائل الإلكترونيّة لا بصلاة النهوض من النوم، ويُختم يومُهم بتحديث صفحتهم (wall update) على الفايسبوك بدلاً من صلاة النوم، أو ظاهرة الكهنة الناشطين إلكترونيًّا فيما لا ترى رعاياهم وجوههم إلّا في قدّاس الأحد، أو ظاهرة التسابق على زيادة عدد الأصدقاء الافتراضيّين فيما الصداقة الفعليّة معدومة، هذا حتّى لا أذكر طلبات الصلوات الإلكترونيّة والاعترافات الإلكترونيّة والرعايا الإلكترونيّة، وغيرها. قد يهتمّ الكثيرون بهذه الظواهر درسًا وتحليلاً، ولكنّنا نقرأ بغير كتاب العالم الذي نحن فيه ولا ينبغي أن نكون منه. ولكي نكون كذلك، يلزمنا التمييز الذي هو نتيجة هذه التكامليّة (synergy) بين روح الربِّ والبشر. حتّى العلم، بحسب ما عرضنا في الجزء الأول، يشترط التمييز للوصول إلى المعرفة. يبقى أنّ بلوغ التمييز هو للإنسان المستنير، كما يعلّم آباء كنيستنا، وللوصول إليه لا بدّ من الانتقال من المعلومات والمعارف التي في الدنيا، إلى تلك التي من المسيح، وذاك بموقفٍ كيانيّ شاملٍ للقلب والعقل معًا، أي موقفٍ تائبٍ ثابتٍ مملوءٍ رجاءً واتّضاعًا.

والسبح لله دائمًا.

* حديث في خلوة طلاب اللاهوت مطلع الصوم الكبير ٢٠١٣